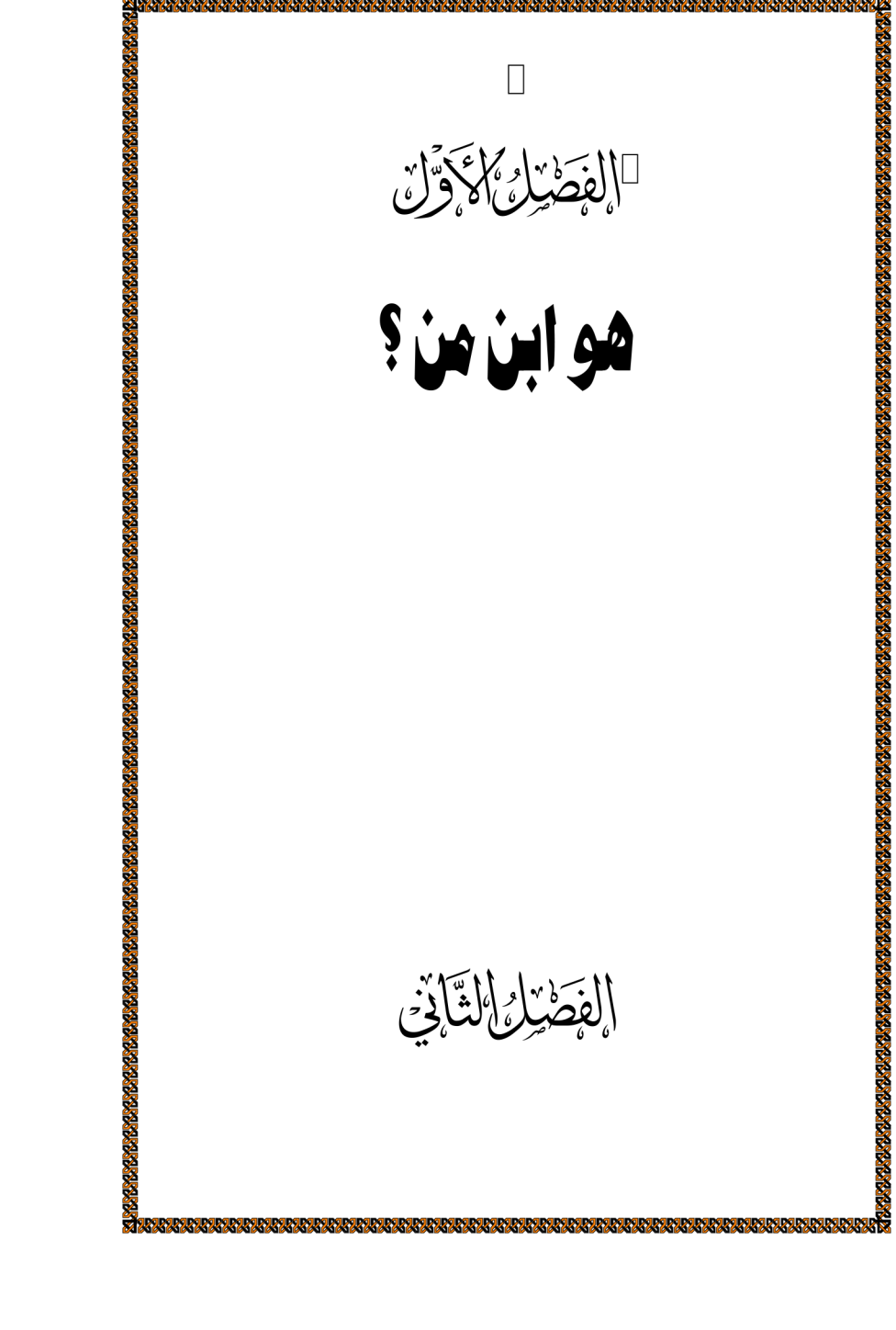
الفصل الأول
هو ابن من؟
الفصل الثاني

مؤمن صادق الإيمان .جلس على ظهر فرسه أكثر مما جلس على عرشه . رقد في الخيم والتحف السماء مع مقاتليه أكثر مما نام بجوار أهله .تجول في الفيافي في قرِّ البرد ولحيف الحر أكثر ما تمتع بالتتره في بساتين وحدائقها الغناءة .زخرف طعنات السيوف والرماح جسمه بدلا من التزين بالحلى والجواهر والأوسمة.

فارس زاهد لم يتكرر . زخَّ عرقا في سوح القتال أكثر من التزين بعطر العود والمسك أو القيلولة في أحواض الحليب . مجاهد عظيم . زاهد متصوف لم يغمض له الجفن إلا منتصف الليل لينهض في الثلث الأخير من الهزيع ليتهجد .

يقبل على الصلاة والدعاء والاستغفار كأنه يحمل على عاتقه خطايا الناس أجمعين .يتلوا ما تيسر من القرآن الكريم حتى ينبلج الفجر ليوقظ أهله أن كان بينهم أو قواده وجنوده .

إن كان في ساحة الوغى والجهاد ليؤم فيهم صلاة الفجر ثم يجلس لتمشية شؤون دولته واستقبال أبناء رعيته لقضاء احتياجاتهم.

قال أبن الأثير في بيان فضله[1] :

" قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل

(١) انظر : الكامل (١١/ ٤٠٣).

نور الدين، ولا أكثر تحريًا للعدل والإنصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه، وإنعام يسديه " .

قال ابن كثير : وقد كان نور الدين حسن الخط، كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعًا للآثار النبوية، محافظًا على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، محبًّا لفعل الخيرات، عفيف البطن والفرج، مقتصدًا في الإنفاق على نفسه وأهله وعياله في المطعم والملبس، لم تُسمع منه كلمة فحسن في غضب ولا رضًا . أهـ[2] .

لم يأبه بأبهة الحكم والسلطان ولم يتقاضى راتبا من بيت المال المسلمين وإنما كان يأكل ويلبس هو وأهله من ماله الخاص ولم يكن له بيت يسكنه، وإنما كان مقامه في غرفة في قلعة قد اشتراه من ماله، يحل فيها عندما يعود من ساحة الجهاد.

كان رحمه الله لا يبتسم ، وروى أبو شامة قائلاً :

" أنه قرء عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال : إني لأستحي من الله تعالى أن يراني مبتسمًا والمسلمون محاصرون بالفرنج "[3]

ذلكم هو البطل التركماني الشهم نور الدين محمود بن عماد الدين بن آق سنقر زنكي .فكان هذا الشبل من ذاك الأسد .

(٢) انظر : البداية والنهاية (١٦/ ٤٨٢).
(٣) الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ١٤٣)، البداية والنهاية (١٢/ ٣٢٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قبل أن نسافر معا في رحلة إلى بطون التاريخ لنقتطف الأزهار ونزيل الأشواك عن سيرة هذا البطل التركماني العظيم، نود أن نوضح بأننا لا نبغي اعتماد التفسير الأحادي للتاريخ في سيرة الأبطال والقادة الذين كتبنا وسنكتب عنهم . ولا ننظر الى سيرتهم من منظار عرقي ضيق او الدافع الاقتصادي أو المذهبي او محاولة طمس حقوق الآخرين ... الخ .

إنما هدفنا هو البحث عن تلاحم القائد البطل مع المبادئ الإسلامية التي كانت محور حركته وتفسيره للوقائع ونظرته إلى المحتلين الغزاة، ودور القائد أو البطل في استنهاض الهمم و وضع كل القوى المؤمنة الفاعلة في المنظور الإسلامي للتوحد وأحداث التغيير في النفوس وتهيأتها لتحرير الأرض والمقدسات .

إن اتباعنا للمنهج التأريخ الفردي الذي يركز على شخص القائد وجهوده في مواجهة التشرذم والتناحر من جهة و التحدي الصليبي الاحتلالي من جهة أخرى هو ليس تمجيد الفرد، حتى وان كان يستحق ذلك بجدارة وامتياز، لأننا نؤمن ما من أمة تنهض ويكون لها مكان تحت الشمس ما لم يظهر قائد يأخذ على عاتقه تجيير المرحلة التاريخية لصالح الأمة ونهوضها ورفعتها .

ولا يخفى على القارئ الكريم أهمية وضرورة القائد المحرك للهمم والذي يضع الأسس الصحيحة لنهضة الأمة وأعدادها للنضال والجهاد من اجل الوحدة والتحرير .وكما يقول المؤرخون أن التاريخ يبقى يدور في فلك الأشخاص "العباقرة لا في فلك" الأفكار الصحيحة .وكيف إذا كانت العباقرة يدورون في فلك الأفكار الصحيحة، فعند ذلك تحدث المعجزة كما حدثت عند تحرير بيت المقدس .

ولهذا تعمدنا البدء بالكتابة عن المغوار عماد الدين زنكي وابنه الشهيد نور الدين محمود زنكي لأنهما هما اللذان وضعا استراتيجية تحرير بيت المقدس . وسار على نهجهم القائد الكردي البطل صلاح الدين الأيوبي الذي تعلم وتهذب واحترف العسكرية في مدرسة نور الدين محمود وان معظم قواد جيش صلاح الدين ومقاتليه عند فتح بيت المقدس كانوا من الفرسان التركمان الصناديد الذين صقلتهم مبادئ الإسلام الحنيف وهذبت شجاعتهم وفروسيتهم المتجذرة فيهم، فاندفعوا للجهاد تحت راية الإسلام لتحرير ارض العرب والمسلمين المقدسة دون أي التفات إلى العرق أو القومية أو المذهب إذ كان يضم جيش نور الدين المسلمين السنة والشيعة التركمان والعرب والأكراد .

فمن هنا تنبع أهمية القائد المحنك الذي يجمع ولا يفرق.

أكرم الله نور الدين بذكر مجيد وسيرة عطرة ولم يقطف من هذه الدنيا سوى ثمانية وخمسين عامًا، فقد ولد الفارس التركماني الزاهد وقت طلوع الشمس من يوم الأحد ١٧ من شهر شوال سنة ٥١١ للهجرة، الموافق ١١ شباط، فبراير ١١١٨ للميلاد ومات يوم الأربعاء ١١ من شوال سنة ٥٦٩ للهجرة .

مكث منها في الملك ٢٨ عامًا .وهو ثاني أولاد عماد الدين زنكي بعد سيف الدين غازي .وبعد وفاة عماد الدين زنكي اقتسم ولداه حسب تقاليد ذلك الزمان ملك أبيهم :فاستقر سيف الدين غازي[4] على ولاية الموصل

(٤) قال ابن كثير : "كان من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، وأجودهم سريرة، وأصبحهم صورة، شجاعًا كريمًا، يذبح كل يوم لجيشه مائة من الغنم، ولمماليكه ثلاثين رأسًا، وفي يوم العيد ألف رأس سوى البقر والدجاج، وهو أول من حُمل على رأسه سنجق من ملوك الأطراف، وأمر الجند أن لا يركبوا إلا بسيفَ ودبوس، وبنى مدرسة بالموصل، ورباطًا للصوفية، وامتدحه الحيص بيص

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتولى نور الدين محمود حكم حلب .وقد كان نهر الخابور هو الحد الفاصل بين أملاك الأخوين.

اشتهر سيف الدين غازي بالسياسة والأناة، على حين كان نور الدين الذي ذاع صيته محاربا فارسا مجاهدا جياش العاطفة صادق الإيمان، ميالا إلى جمع كلمة المسلمين وإخراج الأعداء من ديارهم ، مفطورا على الرقة ورهافة الشعور؛ وهو ما جذب الناس إليه والتفوا حوله، وحبب القلوب فيه . وواصل سياسة أبيه الجهادية.

وتلكم بعض الخصال التي جعلت نور الدين محمود ينجح خلال مدة حكمه في تحرير معظم بلاد الشام من الاحتلال الصليبي، ويصبح قاب قوسين أو أدنى من تحرير بيت المقدس :

أولاً: كان قائدًا ربانيًا:

عرف بتقواه وورعه، فقد كان حريصًا على أداء السنن، وقيام الليل بالأسحار، فكان ينام بعد صلاة العشاء، ثم يستيقظ في منتصف الليل، فيصلي ويتبتل إلى الله بالدعاء حتى يؤذن الفجر، كما كان كثير الصيام، وتميز بفقهه وعلمه الواسع، فلقد تشبه بالعلماء، واقتدى بسيرة السلف الصالح، وكان عالمًا بالمذهب الحنفي، وحصل على الإجازة في رواية الأحاديث، وألف كتابًا عن الجهاد، يصفه ابن كثير فيقول:

فأعطاه ألف دينار عينًا، وخلْعةً. ولما توفى بالحمى في جمادى الآخرة من هذه السنة –٥٤١ـ دُفن في مدرسَته المذكورة، وله من العمر أربعون سنة، وكانت مدة ملكه بعد أبيه ثلاث سنين وخمسين يومًا، رحمه الله" . البداية والنهاية (١٦/ ٣٥٧) وانظر: الكامل (١١/ ١٣٨)، وفيات الأعيان (٤/ ٣)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٩٢)، شذرات الذهب (٤/ ١٣٩).

"ولم يُسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى، صموتًا وقوراً. . . ومجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين والمشورة في الجهاد" .

ويثني عليه ابن الأثير فيقول:

"طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين" .

ثانيًا: كان زاهدًا أمينًا:

فقد كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه، من غير اكتناز، ولا استئثار بالدنيا، وعندما شكت له زوجته الضائقة المادية أعطاها ثلاثة دكاكين له بحمص، وقال: "ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم، ولا أخوض في نار جهنم لأجلك" [5] .

ثالثًا: كان متواضعًا محبوبًا:

قال له الفقيه قطب الدين النيسابوري يومًا: "بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام، فإن أصبت في معركة لا يبقى أحد من المسلمين إلا أخذه السيف، فقال له نور الدين: يا قطب الدين!! ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو" [6] .

وبعدما كثرت فتوحاته، واتسعت دائرة سلطانه، جاءه تشريف من الخلافة العباسية تضمن قائمة طويلة جليلة بالألقاب التي يُذكر بها عندما يدعى له

(٥) تاريخ الإسلام (٣٧/ ٣٧٧).

(٦) مرآة الزمان (٨/ ١٩٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على منابر بغداد، ليعممها على بقية البلدان، فأوقفها، واكتفى بدعاء واحد هو: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي.

ورفع أحد أفراد رعيته قضية عليه، فاستدعاه القاضي، فقال: السمع والطاعة.. M ¶ ¸ ﴿قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.. L (النور: ٥١)، إني جئت ها هنا امتثالاً لأمر الشرع. وفي مرة أخرى دُعي للقضاء فاستجاب، ولما ثبت أن الحق مع نور الدين، هب لخصمه ما ادعاه عليه.

رابعًا: كان حريصًا على تطبيق أحكام الشرع:

وأشهى شيء عنده كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها، وقد ألغى جميع الضرائب التي تزيد عن الحد الشرعي، بالرغم من الدخل الكبير التي تدره، والحاجة الماسة إليه لأغراض الجهاد، وكان يقول: "نحن نحفظ الطريق من لص وقاطع طريق، أفلا نحفظ الدين ونمنع ما يناقضه"[7].

خامسًا: كان يُكرم العلماء، ويبالغ في ذلك:

فبالرغم من أن الأمراء والقادة كانوا لا يجرءون على الجلوس في مجلسه دون أمره وإذنه، فإنه كان إذا دخل عليه العالم الفقيه، أو الرجل الصالح، قام هو إليه، وأجلسه، وأقبل عليه مظهراً كل احترام وتوقير، وكان يقول عن العلماء: "هم جند الله، وبدعائهم نُنصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإن رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا"[8].

(٧) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (صـ١٧٣).
(٨) الروضتين (١/ ٢٣).

ويُروى أنه لما رأى أصحاب نور الدين كثرة خروجه للجهاد وإنفاقه عليه قال له بعضهم: "إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح، فغضب من ذلك".

وقال: "والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها على من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ، وهؤلاء لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم؟!"

وكان يسمع نصيحتهم ويجلها ويقول: "إن البلخي إذا قال لي: محمود، قامت كل شعرة في جسدي هيبة له ويرق قلبي"[9].

وكانت بلاد الشام خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية.

سادسًا: كان مهتمًا بأحوال المسلمين:

فلقد عمل على كفالة الأيتام وتزويج الأرامل وإغناء الفقراء، وبناء المستشفيات ودور الأيتام والأسواق والحمامات والطرق العامة.

سابعًا: كان أبيًا عزيزًا شهمًا شجاعًا:

يغار على حرمات المسلمين، ولا يهدأ له بال حتى ينصرهم وينتقم لهم، فلم يكد يمر شهر على استلامه الحكم حتى هاجم الصليبيون الرها ظنًا منهم أن الحاكم الجديد ضعيف، فهاجمهم وقتل ثلاثة أرباع جيشهم.

(٩) تاريخ الإسلام (٤٠/ ٢٧٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي سنة ٥٥٨هـ هاجم الصليبيون جزءاً من جيشه على حين غفلة، فأكثروا فيهم القتل، ونجا نور الدين في اللحظة الحاسمة وهرب، وقد عرفت هذه المعركة بـ(البقيعة)، فقال: "والله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام"، وعرض الصليبيون عليه الصلح فرفض، وكان انتقامه منهم رهيبًا في معركة حارم في ١١ أغسطس ١١٦٤م، إذ قتل منهم عشرة آلاف وأسر عشرة آلاف أو أكثر، وكان بين الأسرى عدد من كبار أمرائهم وقادتهم.

ثامنًا: كان لهوجًا في الدعاء:

ولا يرجو النصر إلا من الله، فعندما رأى جموع الصليبيين الهائلة قبيل معركة حارم، انفرد بنفسه تحت تل حارم وسجد لله ومرَّغ وجهه وتضرع قائلاً: "يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك" . . "إيش فضول محمود في الوسط، مَن محمود الكلب حتى يُنصر؟!!" يحقر نفسه ويتذلل إلى الله سبحانه.

ظهر نور الدين محمود زنكي في وقت كان عصيبا على المسلمين والناس في أشد الحاجة إلى مثله ليأخذ بيدهم في حلكة الظلام الدامس الذي اكتنف بلاد المسلمين في بلاد الشام، منذ أن وطئتها أقدام الغزاة الإفرنج الصليبيون، واحتلوا القدس الشريف.

وقد استطاع أباه المرحوم عماد الدين أن يباشر في توحيد المسلمين ويهيئ لهم ما استطاع من قوة ورباط الخيل وتضييق فجوة الخلاف والتناحر بين أمراء المسلمين.

نجح المغوار بقدرته وكفاءته العسكرية والإدارية العالية من فتح مدينة الرها سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٤ م، الذي كان بمثابة ضربة قوية للكيان الصليبي المحتل؛ لأن الرها كانت أولى الإمارات الصليبية التي تأسست في الشرق إبان

الحملة الصليبية الأولى، ولم يمهل القدر عماد الدين لكي يواصل تحرير الأراضي المحتلة، حيث اغتالته يد الغدر في ٦ من ربيع الثاني ٥٤١هـ/ ١٤ من أيلول، سبتمبر ١١٤٧م.

وكما تحدثنا عن عماد الدين زنكي .لم تسقط الراية الجهادية، بل حملها يد مؤمنة جبل على حب الجهاد وسار سيرة أبيه بل رفع رأس أبيه وقومه عاليا وتبوءه بامتياز مكانة مرموقة في سجل التاريخ.

وأحتضن نور الدين محمود زنكي التركماني ومنحه اشرف صفحاته وخلده كأعظم القادة المسلمين الأبطال وكاد أن يسمى الخليفة الراشد السادس لورعه وزهده وعدله وفروسيته وشجاعته.

يقول الإمام ابن عساكر[10]:

"بلغني أنه- نور الدين محمود- في الحرب رابط الجأش، ثابت القدم، شديد الانكماش، حسن الرمي بالسهام، صليب الضرب عند ضيق المقام، يقدم أصحابه عند الكرة، ويحمي منهزمهم عند الفرة، ويتعرض بجهده للشهادة لما يرجو بها من كمال السعادة".

وعن شجاعته وأقدامه قال ابن الأثير[11]:

"وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدة ورأيًا، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك، سمعت جمعًا كثيرًا من الناس لا أحصيهم يقولون: إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه، كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل".

(١٠) تاريخ دمشق (٥٧/ ١٢٠).

(١١) الكامل (١١/ ٤٠٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان نور الدين رحمه الله إذا حضر الحرب أخذ قوسين وجعبتين، وباشر القتال بنفسه، وينادي بأعلى صوته الله أكبر حي على الجهاد ويندفع نحو العدو كالغضنفر الهصور.

وعن زهده يقول سبط ابن الجوزي:

"كان إذا أقام الولائم العظيمة لا يمد يده إليها إنما يأكل من طبق خاص فيه طعام بسيط"[12].

استهل نور الدين حكمه بالقيام ببعض الهجمات على إمارة إنطاكية الصليبية، واستولى على عدة قلاع في شمال الشام، ثم قضى على محاولة "جوسلين الثاني" لاستعادة الرها التي فتحها أبوه عماد الدين زنكي وكانت هزيمة الصليبيين في الرها أشد من هزيمتهم الأولى.

وكان نور الدين دائم السعي إلى استمالة القوى الإسلامية المتعددة في شمال العراق والشام وكسب ودها وصداقتها لمواجهة العدو الصليبي، فعقد معاهدة مع "معين الدين أنر" حاكم دمشق سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧ م وتزوج ابنته، فلما تعرض أنر لخطر الصليبيين وكانت تربطه بهم معاهدة وحلف لم يجد غير نور الدين يستجير به، فخرج إليه، وسارا معا واستوليا على بصري وصرخند قبل أن يقعا في يد الصليبيين، ثم غادر نور الدين دمشق؛ حتى يبعث في قلب حاكمها الأمان، وأنه لا يفكر إلا في القضاء على الصليبيين؛ فتوجه إلى حصون إمارة إنطاكية، واستولى على أرتاح وكفر لاثا وبصرفوت.

وعلى أثر ذلك ملك الرعب قلوب الغزاة من نور الدين، وأدركوا أنهم أمام رجل لا يقل كفاءة وقدرة عن أبيه عماد الدين، وكانوا قد ظنوا أنهم قد

(١٢) مرآة الزمان (٨/ ٣١٥).

استراحوا بموته، لكن أملهم تبدد أمام حماسة ابنه وشجاعته، وكانت سنه إذ ذاك تسعا وعشرين سنة، لكنه أوتي من الحكمة والتدبير خيرا كثيرا.

وفي سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م وصلت الحملة الصليبية الثانية على الشام بقيادة لويس السابع وكونراد الثالث، لكنها فشلت في تحقيق أهدافها وتعرضت لخسائر هائلة، وعجزت عن احتلال دمشق، ويرجع الفضل في ذلك لصبر المجاهدين واجتماع كلمة جيش المسلمين ووحدة صفهم، وكان للقوات التي جاءت مع سيف الدين غازي وأخيه نور الدين أكبر الأثر في فشل تلك الحملة.

استغل نور الدين هذه النكبة التي حلّت بالصليبيين وضياع هيبتهم، للهجوم على إنطاكية بعد أن ازداد نفوذه في الشام، فهاجمها في سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م الإقليم المحيط بقلعة حارم الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي، ثم حاصر قلعة إنب، فنهض "ريموند دي بواتيه" صاحب إنطاكية لنجدتها، والتقى الفريقان في ٢١ من صفر ٥٤٤هـ/ آخر حزيران يونيو ١١٤٩م ونجح المسلمون في تحقيق النصر وأبادوا الصليبيين عن أخرهم، وكان من جملة القتلى صاحب إنطاكية وغيره من قادة الفرنج وكان فرح المسلمون بهذا النصر عظيما.

نجح نور الدين في ضم دمشق إلى دولته في سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م وكانت هذه الخطوة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية؛ حيث توحدت بلاد الشام تحت زعامة القائد التركماني نور الدين محمود زنكي: من الرها شمالا حتى حوران جنوبا، ولأول مرة منذ الغزو الصليبي أحدث الفارس القائد التوازن العسكري بين الجبهة الإسلامية وبين الجبهة الصليبية التي كانت تستغل حالة التشتت والتشرذم، وتوجه ضرباتها إلى دولة الإسلام حتى إن نور الدين لم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يستطع نجدة عسقلان عندما هاجمها الصليبيون سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م لأن دمشق كانت تقف حائلا دون تحقيق ذلك.

قاد هذا النجاح الكبير إلى تحقيق المرحلة الأولى من توحيد الجبهة الإسلامية أمام الصليبيين وقلصت أمامهم إمكانيات الغزو والتوسع إلا عن طريق الجنوب .

ولتنفيذ استراتيجيته العسكرية لفتح بيت المقدس، توجه أولا إلى أحكام سيطرته على شمالي العراق والشام كاملة وفي المقدمة منها دمشق بوابة القدس الشريف .

وعندما استشرف الصليبيون خطة نور الدين تطلعوا إلى مصر باعتبارها الميدان الجديد لتوسعهم، وشجعهم على ذلك أن الدولة الفاطمية في مصر كانت تعاني سكرات الموت فاستولوا على عسقلان، وكان ذلك إيذانا بمحاولتهم غزو مصر، وتحولت نياتهم إلى عزم حيث قام "بلدوين الثالث" ملك بيت المقدس بغزو مصر سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م محتجا بعدم التزام الفاطميين بدفع الجزية له، غير أن حملته فشلت وأجبر على الانسحاب بفضل صمود المقاتلين المسلمين.

أثارت هذه الخطوة الخطيرة مخاوف نور الدين، فأسرع إلى شن حملات على الصليبيين في الشام حتى يشغلهم عن الاستعداد لغزو مصر ويضعفهم، ودخل في سباق مع الزمن للفوز بمصر، فأرسل عدة حملات إليها تحت قيادة "أسد الدين شيركوه" وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي اللذان كانا من قواد جيش نور الدين محمود زنكي .

ابتدأت جهود نور الدين وقواده للوصول إلى مصر، من سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م واستمرت نحو خمس سنوات حتى نجحت بعد سباق

محموم مع الصليبيين في الظفر بمصر سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م وتولى أسد الدين شيركوه الوزارة للخليفة "العاضد" آخر الخلفاء الفاطميين، على أنه لم يلبث أن توفي بعد شهرين فخلفه في الوزارة صلاح الدين الأيوبي.

نجح صلاح الدين الأيوبي في بسط الأمن واستتباب الأمور وتثبيت أقدامه في البلاد، وجاءت الفرصة المناسبة لإسقاط دولة الفاطميين؛ فقطع الدعاء للخليفة الفاطمي ودعا للخليفة العباسي في أول جمعة من سنة ٥٦٧هـ/ أيلول سبتمبر ١١٧١م .

كان لدخول مصر تحت حكم دولة نور الدين محمود دوي هائل، لا في مملكة بيت المقدس وحدها بل في الغرب الأوروبي كله، وارتفعت الأصوات لبعث حملة جديدة تعيد للصليبيين في الشام هيبتهم وسلطانهم، وتوجه لمصر ضربات قوية، غير أن حملتهم على مصر لم تحقق أهدافها ليقظة صلاح الدين الأيوبي في مصر.

وبنجاح نور الدين في ضم مصر إلى جبهة الكفاح يكون قد حقق الحلقة الأخيرة من حلقات الجبهة الإسلامية تمهيدا للضربة القاضية لتحرير بيت المقدس وبلاد الشام من الاحتلال الصليبي، إلا أن المنية قد حال أمام تحقيق حلم هذا الفارس التركماني البطل في تحرير بيت المقدس إلا انه فتح الطريق واسعا أمام المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي لفتح بيت المقدس وطرد الغزاة الصليبيين من بلاد العرب والمسلمين، بعد وفاة القائد التركماني البطل الذي مهد مع والده الطريق لهذا الإنجاز الذي لا يزال التاريخ يتحدث عنه مبهورا.

لم يشغل نور الدين محمود مستلزمات الجهاد العسكري وتوحيد الصف الإسلامي وإنما بموازات ذلك فتح بابا الجهاد العلمي والثقافي التي هي من أهم مستلزمات التحرير .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صرف جهودا كبيرة في إقامة المدارس والمساجد حتى بلغت مدارسه ومساجده المئات، لا يخلو منها بلد دخل تحت سلطانه، وكان إذا أنشأ مدرسة أوسع النفقة في بنائها، واجتهد في اختيار شيوخها، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة، وكانت مدارسهم تعنى بالقرآن والحديث والعلوم، وكان له شغف بالحديث وسماعه من جلّة المحدثين، وأجازه بعضهم بالرواية.

وإلى جانب إنشاء المدارس توسع في إقامة البيمارستانات ـ المستشفيات ـ في كل بلدة تحت حكمه، وجعلها للفقراء مجانا والاستعانة بالأطباء والحصول على الدواء، كما حرص على إقامة الخانات على الطرق بين المدن ليترل بها المسافرون للراحة أو للمبيت، وجعل عليها من يحرصها ويحافظ على زائريها.

أما إنجازاته الاجتماعية فقد لخصها أبن عساكر في قوله[13]:

"وأدر على الضعفاء والأيتام الصدقات، وتعهد ذوي الحاجة من أولي التعفف بالصلات، حتى وقف وقوفًا على المرضى والمجانين، وأقام لهم الأطباء والمعالجين، وكذلك على جماعة العميان، ومعلمي الخط والقرآن، وعلي ساكني الحرمين ومجاوري المسجدين، وأكرم أمير المدينة الحسين، وأحسن إليه، وأجرى عليه الضيافة لما قدم عليه وجهز معه عسكرًا لحفظ المدينة، وقام لهم بما يحتاجون إليه من المؤونة، وأقطع أمير مكة إقطاعًا سنيًا، وأعطى كلاً منهما ما يأكله هنيًا مريًا، ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس، وأقطع أمراء العرب الإقطاعات لئلا يتعرضوا للحجاج بالنحس، وأمر بإكمال سور مدينة الرسول، واستخراج العين التي بأحد وكانت قد دفنتها السيول، ودعي له بالحرمين، واشتهر صيته في الخافقين،

(١٣) تاريخ دمشق (٥٧/ ١٢١).

وعمر الربط والخانقاهات والبيمارستانات، وبنى الجسور في الطرق والخانات، ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين، وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم وبقدر ما يكفيهم، وكذلك صنع لما ملك سنجار وحران والرها والرقة ومنبج وشيزر وحماه وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر، فما من بلد منها إلا وله فيه حسن أثر، وما من أهلها أحد إلا نظر له أحسن نظر، وحصل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها، وأقام عليها الحفظة من نقلتها وطلابها وأربابها، وجدد كثيراً من ذي السبيل وهدى بجهده إلى سواء السبيل".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com